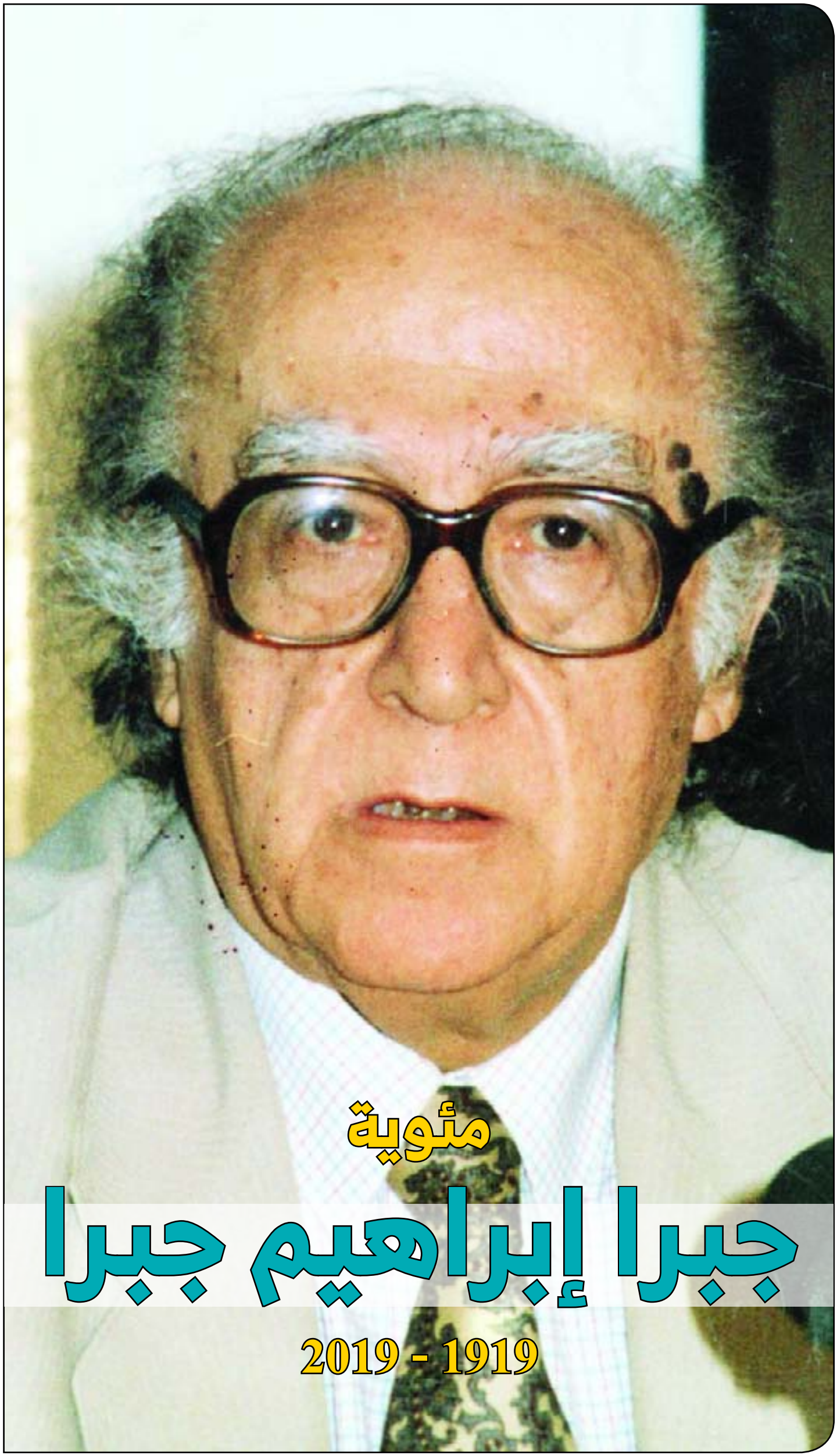

عراقيون
من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم
العدد (4502) السنة السابعة عشرة -
الخميس (5) أيلول 2019
WWW. almadasupplements.com

3
جبرا إبراهيم جبرا ..مترجماً

العدد (4502)
السنة السابعة
الخميس - عشرة (5) أيلول 2019

جـبرا الذي ملأ الفضاء العراقي في الخمسـينات والسـتينات، نجـماً متألقاً من نجوم المجتمع الثقافي المخملي، كان يبدو مسـتقراً في المكان رغم اقتلاعه من موطنه الأول فلسـطين. والمسـتقر الثقافي، على هذا النحو، هو المكـوث في الأدب، باعتباره قيمة تتشكل من خلالها مواطنية الجدارة.

وفي مذكراته يقول جبرا انه سـأل سـائقاً دمشـقياً عن بغداد قبل أن يذهب إليها نهاية الأربعينات، فأجابه : فيها ١٧ ملهى! وهذا الجواب لرجل بسـيط كان أقرب الى لغز عليه أن يحل طلاسمه، فبغداد التي نظر إليها السائق من زاوية لهوها وعبثها، كانت في ترامي مساحاتها وتعدد صورها، مشروعا اختبر من خلاله جبرا مواهبه، كما اختبرته في صحبة عائلية أوصلته الى اكتساب الجنسية العراقية، فقد تزوج لميعة العسكري أبنه عائلة من الوزراء والضباط الكبار في العهد الملكي.

جبرا إبراهيم جبرا الراحل بين مكانين

فاطمة المحسن

كان انتساب جبرا الى العراق في ذاكرة المثقفين الذين عاصروه وأتوا بعده، أقرب إلى البداهة، فلم تخطر ببال المجتمع الثقافي إشكالية ما في هويته، حتى بعـد أن كتب روايته " البحث عن وليـد مسـعود" وبطلهـا الفلسـطيني المهاجر. بيد ان الشـاعر أحمد دحبور يـرى ان " ثنائية العراقي الفلسـطيني كانت تلازمـه دراميا بما يتجـاوز الفصـام إلى عملية التوحـد، فهو في العراق نجم المجتمع الناجح، المثقف المسيطر، ولكنه في الأعماق، ذلك الفلسـطيني المسـيحي الخليـط مـن فلاح ومـدني والمجـروح وطنيا، إلى حد ان أصبح الجرح شخصياً" . وأيا كانت القـراءات السـايكولوجية لهويـة جـبرا، فقـد فضـل المكوث في العـراق رغم خـراب أزمنته، وتوفي بعد رحيل رفيقة عمره بسنتين.

في العقود الأولى من مكوثه جبرا ببغداد، كانت العلاقة شـبه مختلة بين شـغف المثقف وتطلعه إلى التعبـير عـن صـوت الفقـراء ومشـاكلهم، وبـين البقـاء في بـرج الثقافـة العاجـي الذي تشـكلت على أساسـه تجمعات ومنتديات الفن والأدب. ولعله بين كل هذا، لم يكن يوماً يعاني تناشـزاً بـين دوريـن، فهـو لم يوهم نفسـه منقذاً للجماهـير،ولا معـبراً عن طموحاتهـا، وحتى في كتاباته النقدية تجنب التورط في الآيديولوجي، مهمـلا في قراءاتـه للشـعر والتشـكيل، الخطاب السياسـي المضمر في أعمـال كثـيرة، بل تجنب الخوض في شـعر البياتي وسعدي، رغم انه كتب عن موجات الشعر واتجاهاته.

وفي العـودة الى سـجلات تلـك الفـترة، نجـد تمايـز خطاب جبرا عـن كتاب الروايـة العراقية، فبطل روايته " صـيادون في شـارع ضيق" يعلن اشـمئزازاً مـن الجماهـير التـي تجـوب شـارع الرشـيد في تظاهرات ضـد الملكيـة والامبريالية. وعندما أصـدر مجلة "العاملون في النفط" وهي المجلـة التي تمولها شـركة النفـط البريطانية، لم تثنـه مقاطعـة الماركسـيين للمجلة، وهـم كثر في ذلـك الوقت، بل اسـتمرت تلك المقاطعـة حتى بعد أن صـارت تصدر عن شـركة وطنية، ولكنها غدت مصـدر رزق للأدبـاء الصعاليك الذيـن مـا كانت المجـلات والصـحف تدفع لهم خبـز يومهم، وكان سركون بولص واحداً منهم.

أين جـبرا في زمـن الاحتدامـات العراقيـة، ماذا تبقى منه: وجه الغريب القادم من كمبردج،الفاقد وطنـا للتـو ١٩٤٨، أم الاديـب الـذي لا يقيم كبير وزن لضوضـاء السياسية وتهديداتها؟ كان جبرا يبحر كصياد في شارع ضيق، عنوان روايته التي وضـعها بالانكليزيـة. ولكـن بغداد كانـت ملعبه، فهو أتاها زمن نهضتها الثانية، فوجد نفسه داخل مجتمع من التشكيليين والأدباء والباحثين الذين كانـت الثقافة الانكلوسكسـونية مرجعهم، أي انه لم يكـن مغترباً عن هذا المجتمـع الثقافي، كما كان الكثير من نجـومه من العائدين مثله من دراسـات في بلـدان غربيـة، ووسـط حركـة أدبيـة رائـدة تنظر إلى مشـروع الثقافة على انه حالة حضارية ونهضوية.

لم يتعـب جـبرا إلا في زمن الـتردي الثقافي الذي اضطره ان يكتب عن اقصوصـات تافهة سـميت روايات الحرب، ويصوغ ميثيولوجيات متصنّعة عـن صـورة القائـد الضـرورة مـن خـلال أبطال تاريخيـين أكل الدهـر عليهـم وشـرب. والمفارقة الأبـرز كتابته روايـة "عالم بلا خرائط" صـحبة عبـد الرحمن منيف صـديقه الأقـرب والممتنع عن زيـارة العراق وقتذاك، والرواية تتحدث عن عالم القمع الهلامي.

هـل اضـطر جـبرا الترّجـل عـن برجـه العاجي؟ إشكال بين إشـكالات الغربة والشيخوخة، ولكنه يبقـى المعلم الذي رفـد الحركة الثقافيـة العراقية بمصـادر عززت اتجاهات المعرفـة والبحث فيها، فقـد صـاحب الحركـة التشـكيلية والمعماريـة العراقيـة ناقداً ومنظـراً و مؤرخاً ومسـاهماً في تفعيـل الجدل حـول مدارسـ الفـن العراقية،كما كان مشـاركاً فاعلاً في المنتديات والتجمعات التي بدأت مطلع الأربعينات واسـتمرت في نشـاطاتها اللافتة في الخمسينات وما بعدها.

ومن خـلال كتاباته، قدم جـبرا انتباهات ذكية ودقيقـة لتشـخيص مفاصـل مهمـة في حركـة الشـعر العراقـي، وعلى وجه الخصـوص في دراسـاته لشـعر الجواهري والسـياب، مازال النقـاد يسـتهدون بهـا في العـودة الى تلـك الحقبة.

تلبّـس جبرا دور العـراب الثقـافي في العراق عن جدارة، فكتاباتـه النقدية وترجماته عززت منحـى البحث في مـا تعنيـه الأبعـاد المختلفة للأبـداع ،فعندمـا اكتشـف شـغف السـياب بأسطورة تموز من خلال مجموعة من القصائد وفي المقدمـة منهـا "إنشـودة المطـر" ١٩٥٢، ترجم كتاب "الغصـن الذهبـي" لفريزر، ليكون لشـعراء الأسـطورة العـرب مرجـع يعـودون اليـه في البحـث عن اشـكالية الرمـز ودلالاته، وكانت للأساطير الرافدينية حصة في كتاباته وترجماته.ولعـل اسـهامة جـبرا في مجلـة " شـعر" اللبنانيـة، قـد مكنته من اقناع صـديقه بدر شـاكر السـياب حضـور مؤتمـر روما عن حرية الثقافة ١٩٦٢، الذي أسـهمت فيه سـلمى الخضـراء الجيوسـي وأدونيـس، ومجموعـة " شـعر" المعروفة،وحيث وقف فيه السـياب وقفته المشهودة في نفض اليد عن تاريخ التزامه القديم، في خطاب شرح فيه كيف يرى حرية المثقف.

شـغلت قضيـة المثقـف ونخبويته كتابـات جبرا، وهـو بـين الكتاب العـرب الأوائل الذيـن تحدثوا عـن مفهـوم الاغـتراب في الثقافة، فقـد لاحظ ان اغتراب المثقف لا ينحصـر في غيابه عن وطنه،بل قـد يكون مغتربـا في وطنـه " وإذا كان الاغتراب بـارزاً وأليماً بالغيابِ الجسـدي عـن الوطن، فهو قد يكون أشـدّ بروزاً وألماً بالحضور الجسـدي في الوطن نفسه.وإذا كان هذا ينطبق على العديد من المثقفـين في أقطـار العالم المختلفة، مـا تقدّم منها ومـا تخلّـف، فإنـه ينطبق بصـورة خاصـة على العديـد مـن المثقفين العـرب في فترة من أصـعب فترات التاريـخ العربي، وأشـدها تمزيقاً للنفس تحـت الضـغوط المتناقضـة، سياسـية كانـت أم اجتماعية".

التقيـت ابـن جـبرا سـدير في معـرض الكتـاب اللبناني الأخيرة،ولفـرط عراقيـة اللهجـة والنبرة والشـكل، خلتـه مـن المهاجريـن الخارجـين للتو، وعندما عرفني عليـه النحات العراقي محمد غني حكمت، طرحت سـؤالا واحداً : هل تفكر بتحويل بيـت جـبرا إلى متحـف يقصـده الناس؟ قـال انه ينتظر أن تهدأ الاوضاع. ولم تهدأ الأوضاع.

سبق لهذه المادة ان نشرت
في صحيفة الحياة اللندنية

العدد (4502)
السنة السابعة
الخميس - عشرة (5) أيلول 2019

في لقاءٍ مع أسـتاذي المشرف عـلى أطروحتي للدكتوراه، في جامعًـة إكسـتر ببريطانيـا، جـي آر سـمارت بدايـةَ الثمانينـات من القرن الماضي، وضمـن حديث عن بعض علاقات الرواية العراقية بالرواية الأمريكية، أشرت له إلى ترجمة جبرا إبراهيم جـبرا لرواية وليم فوكنر «الصخب والعنف»، فأبدى أسـتاذي اسـتغرابه، وضمناً إعجابه مما وجدها جرأة غير عادية من جبرا لفعل ذلك.

نجم عبد الله كاظم

جبرا إبراهيم جبرا ..مترجماً

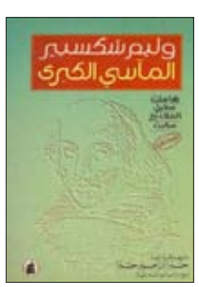

ولم يكـن ذلك بالأمـر المفاجـئ لي إذ من الصـعوبة غـير العاديـة ترجمـة تلـك الرواية غير التقليدية، في لغتها وبنائها وبهيمنة تيار الوعي بتداعياته وتقنياته عليها، خصوصـاً في تداخلها مع السرد والأحـداث والحـوارات، وما قـادت إليه مـن تداخلات زمانيـة ومكانية وحدثيه. ولهـذا طلـب أسـتاذي منـي النسـخة العربيـة لـيرى كيف كانت نتيجـة جرأة المترجـم الكبـير في ترجمـة الروايـة. وبعد حـين ازداد إعجاب الأسـتاذ بعمل جـبرا لما وجـده في عمله مـن ذكاء ودقة إيصـال لمـا تشـتمل عليـه الروايـة ولمَا توحي بـه. وزاد من ذلـك الإعجاب حين عرف موسـوعية جبرا وتعدد اهتماماته الإبداعيـة، التـي نسـتذكرها هنا فنقولِ أنـه كان باحثاً وأكاديميـاً، وناقداً أدبياً، وفناناً وناقداً تشكيليا، وقاصاً وروائياً، وشاعراً، وكاتبَ سيرة، ومترجماً.

(٢)

تذكرت هذا وأنا أقرأ سوناتات شكسبير وبعض مسرحياته التي ترجمها الكاتب الكبِـير جـبرا إبراهيـم جـبرا، وأظنهـا ستّاً، فأجد نفسي وكأني أغور في أعمق أعماق النص الشكسـبيري وشخصياته بعـد أن نجـح المترجـم في تذليـل كل ما يمكن أن يبرز من حواجز ما بين القارئ وأسـرار العمل المترجـم وخفاياه، أو ما بينـه وبين مؤلف العمل. تسـاءلت: لماذا يتحقـق هذا مـع جبرا أكثر ممـا يتحقق مع مترجمـين متميزين عديدين آخرين؟ فقـد قرأنـا مـن قبـل لسـامي الدروبـي ترجماتـه الخالـدة لأعمـال تولسـتوي ودستويفسـكي، فوجدنـا، مـع كل مـا يُحسـب للمترجم، كيف أنـه لم يكن يبالِ بمـا يكفـي أحيانـاً بـأن تكـون الجملـة التي يصـوغها صـحيحة تماماً أو دقيقة تعبيرياً، ما دامت توصل المطلوب وتؤثر في القـارئ بعد أن يجدها، على ما يبدو، مطابقـة لما يقابلهـا في النص الأصـلي. ولم نسـتطيع، ونحن نقرأ ترجمات عبد الواحد لؤلؤة ونتلمس تمكّنه ومهاراته الواضـحة التـي لا شـكل فيهـا أبـداً، لاسـيما في ترجماته لسلسلة (موسوعة المصـطلح النقدي)، أن نتجاوز تصـخّر جملِـه العربيـة وأسـلوبه عمومـاً- إن صـح التعبير- وهو يبالغ في أن يصوغٍ النصـ العربي بما يجعلـه مطابقاً تماماً للنصـ بلغته الأصـلية، والأمر يمتد إلى كمـال أبو ديب، ومـا أدراك مَن كمال أبو ديـب!، الذي يتخطـى تصـخّر ترجمات لؤلـؤة بكثير، فتكـونِ النتيجة لا الإبقاء على الصعب صـعباً فحسب، بل تحويل السـهل والاعتيـادي إلى صـعب. ولكي يعـرف القـارئ مـا نعنيـه بهـذا نقـول وبـدون مبالغة إن كمـال أبو ديب كاد أن يجعل مـن كتاب إدوارد سـعيد الشـهير (الاستشـراق)، مثـلاً، كتابـاً مقيتـاً، بل هو كان كذلك فعلاً لطلبتي ونحن ندرسه في مرحلة الدكتوراه الأمر الذي جعلني استبدل ترجمة أبو ديب للكتاب بترجمة الدكتـور محمـد عنـاني. وقرأنـا لكاظم سـعد الدين فتلمسنا شـيئاً من التجاوز لبعـض طبيعـة المتكلـم بالإنكليزيـة والأسـرار الكامنـة خلف كلامـه أحيانا، حتى وهو يقترب منا قـرّاءً وبالرغم من تمكنـه الواضـح من هذه اللغـة مفرداتٍ وعبـارات. ورأينـا كيـف يبـدو محمـد درويشـ، في ترجمتـه، أقـرب إلى اللغة الإنكليزيـة التـي ينقـل عنهـا منـه إلى اللغـة العربيـة التي ينقل إليهـا ومعٍ كل مهاراتـه الواضـحة، وذلـك تحديـداً في بعضـ ترجماتـه الأولى وقبـل أن يبـدأ بالاقـتراب من خانة جـبرا ليكون عندنا فيمـا بعد المثـال الذي نتمنـى أن نقترب منـه للمترجـم الأدبـي والثقـافي. فماذا يتحقـق في نص جـبرا المترجـم؟ ولماذا وكيف يتحقق ليكون تفرد ترجماته؟

(٣)

الذي يتحقق، بكل بساطة، هو أن النص يبدو وكأنه كُتب أصلاً كما نقرأه بكلماته وعباراته وموحياته، بحيث نحس وكأن المترجم هوٍ صـاحب النصـ. وربما منٍ هنا تحديداً يتحقق التواصل الذي كثيراً ما تفقده النصوص المترجمة بينها وبين قارئها، وبدرجة قد لا تقل عن التواصـل الـذي يكون قد حققه النص الأصـلي مع قارئـه. أمـا لماذا وكيـف اسـتطاع جبرا تحقيـق ذلـك؟ فأقـول انطلاقاً مـن تأمل الأمـر جيداً، مـع أن تجربتـي في مجال الترجمـة التطبيقيـة، وهـي تجربـة متواضـعة بالتأكيد لكنها تجعلني قريباً إلى حـد ما مـن أهل الصـنعة، يبـدو أن الجواب على ذلك يكمن في ما يأتي:

أولا: تمكّـن جبرا غير العـادي من اللغة الأصـلية للنصـ، نعنـي الإنكليزية، بما في ذلك معرفة أسـرارها وما يكمن خلف ظاهـر مفرداتها وعباراتها، مع تمكن من اللغـة العربية بل عشـق واضـح لها حد الإبـداع فيها وتطويعها لنقل كل أسـرار النص الأصلي.

ثانيـا: ونتيجـة لذلـك يتمكـن جبرا مما يمكن أن نسـميه إعادة خلق للعملٍ الذي يترجمـه، وبمـا يجعـل منـه جـزءاً من شخصـيته، مع حرص مخلصـ الى حد كبير على عـدم الإخـلال بالأمانة للنص الأصـلي ولمؤلفه عبر الجهـد الذي يبذله للمحـافظة على روحيته.

ثالثـا: اسـتيعاب المترجـم، وهـو يمتلك حسّـا لكل ما يشـتمل عليه النص، للعمل الذي يترجمـه بكل دقائقـه وكلماتـه وما وراءهـا- نعنـي ظواهرهـا وخفاياها- وبمسـتوياته المختلفـة، الأمـر الـذي يقـوده في النتيجة إلى تضـمين ذلك كله في النصـ العربي. ولأنـه يعرف بحس وذكاء غـير عاديين طبيعـة القارئ الذي يقدم له النص فإنه يتمكن من صياغة هذا النص بمـا يتوافق وهـذا القارئ ودون التضحية بأي من تلك المستويات.

بقي أننا حـين نقارن جبرا بآخرين ممن ذكرنـا أسـماء بعضـهم، فإننـا لا نريـد التقليل من شـأنهم بدليل استشهادنا بهم وبما معـروف عنهـم حنكتهـم وتمكنهم وغنـى تجاربهـم الترجمية التي لا شـك فيهـا. ولكننا أردنا أن نقول إنه مع كل ما يمتلكه المترجمون الآخرون يبقى لجبرا بعضـ ممـا لا يمتلكونـه ممـا يجعل من ترجماتـه تنفرد بـينِ الترجمات ويجعل منـه مترجمـا متفـرداً. ولهـذا نأمـل أن تكون وقفة قادمة عند المترجم الفذ محمد درويش.

(٤)

بقي أن نقول إن جبرا كان بحق مدرسـة في الحيـاة، كمـا هـو كذلـك في الأدب والثقافـة للعرب جميعا، وبشـكل خاص للعراقيـين الذيـن يبـدو واضـحاً أنه قد وجد نفسـه بينهم ومنهـم، ولهذا لا نجد غريبـاً أن يقول بثقة وتأكيـد إنه لم ولن يفكـر بـترك العـراق أبـداً، وتحـت أي ضـغط أوٍ ظـرف. وهكذا عاشـ في هذا البلد ابنـاً باراً، وترك بصـماته العميقة علـى الثقافـة العراقية من خـلال الكثير مـن وقتـه وجهـده وفكـره وإبداعـه. وكانـت بغداد بالذات زقاقاً من أزقة قلمه التـي يجـول فيهـا هـو «وصـيادون في شارع ضـيق»، وحتى خطواته الأخيرة، قبل رحيله، «في شـارع الأميرات»، الأمر الـذي يدفعنـا إلى أن نفعل، لهـذا الرجل الذي ترك بصـماته علينـا وعلى حياتنا الثقافية، ما يخلده، لا من خلال ترجماته التي كانت موضـوع مقالنـا هذا وتراثه الثقافي والإبداعي فحسب، بل من خلال مـا يعبر عـن حبنا لـه وهو الـذي أحبنا وبلدنـا وبغدادنـا، وكتب في ذلـك أروع أعماله، وخط أجمل ذكرياته.

العدد (4502)
السنة السابعة
الخميس - عشرة (5) أيلول 2019

حين سألني جبرا: كيف "شمَّعت" الخيط؟

صلاح حسن

"شمعًت الخيط" بهذا المثل العراقي المشهور استقبلني جبرا ابراهيم جبرا حينما جئت أزوره في فندق القدس في عمان بعد فراق دام سنوات. يقال هذا المثل العراقي للناجي من بطش السلطات الجائرة مهما كانت. كنت قد فررت في العام ١٩٩٢ بأعجوبة من أيدي المخابرات العراقية في ذلك الحين بمساعدة اشخاص لا أعرفهم، حضروا من تلقاء أنفسهم إلى مقهى حسن عجمي وأخبروني بضرورة الهرب إلى أي مكان قبل حضور عسس الليل. المفارقة ليست هنا، ولكنها تكمن في الشخص الذي يستخدم هذا المثل. وحين يكون هذا الشخص جبرا ابراهيم جبرا فإن المفارقة ستتحول إلى موقف وقرار خطير.
كان ذلك قبل سنتين او ثلاث سنوات من وفاته

ولو كنت أذكر جيدا، فالمناسبة كانت مهرجان جرش الثالث عشر. كنت مدعوا لقراءة نصوص للاطفال، وكان جبرا مدعوا إلى مؤتمر في لندن وينبغي عليه أن يمر على عمان لأنها كانت المنفذ الوحيد للعراق إلى الخارج. طلب لي فنجان قهوة وبدأنا نسترجع ذكريات قديمة عن بغداد وشارع الأميرات واتحاد الادباء وسألني عن المعجزة التي جعلتني أنجو من الكارثة (كيف شمعًت الخيط).
أخبرته بالقصة فهز رأسه في الهواء كأنه يعتذر عن سذاجة السؤال، وسألني إن كنت بحاجة إلى مساعدة مادية، ولكنه استدرك وقال إن لديه هدية لي سوف يحضرها في المساء اذا عدت إلى زيارته ليلا. كانت قنينة عصرية عادة ما يحرص القادم من العراق تقديمها كهدية إلى أصدقائه المنفيين الذين يعرفون مرارتها وطعم الطين فيها. في الصباح الذي تلا هذا اللقاء غادر جبرا إلى لندن ولم أره بعد ذلك ابدا.
تعود علاقتي بجبرا إلى منتصف الثمانينات من القرن المنصرم، وأول مرة التقيه بشكل مطول كان في دار المأمون للترجمة حيث كنت أعمل هناك مصححا لغويا. أخبرني أنه وجد لي بعض القصائد منشورة في صحف ومجلات متفرقة تصدر كلها خارج العراق الذي كان يخوض وقتها حربا عبثية مع ايران. كما أخبرني أيضا أنه يحتفظ بهذه الصحف والمجلات في بيته ويمكنني أن أزوره والحصول عليها. كنت سعيدا للغاية من سلوك هذا الرجل الذي كنت أنظر له بهيبة ووقار شديد.
بعد يومين كنت في بيته في حي المنصور الراقي في شارع الأميرات. بيت جبرا عبارة عن مكتبة كبيرة فالكتب تستقبلك أينما اتجهت حتى الممرات كانت تزدحم بجانبيها بكتب متعددة الأشكال واللغات. كنت مرتبكا قليلا وأنا اجلس على طرف الكرسي حين فاجأني جبرا بصحن أنيق فيه أنواع مختلفة من الشوكولا، وأظن أنها المرة الأولى التي أتناول فيها شوكولا حقيقية، فمن عادة جبرا أن يقتني الكثير من الحلويات الغربية عندما يكون في زيارة إلى أوروبا. تناولت قطعة وبدأت اقلبها في فمي لطعمها المذهل قبل أن أزدردها وتناولت أخرى مثل طفل محروم يشجعني جبرا بتناول المزيد غير أني توقفت. بعد قليل ذهب جبرا إلى المطبخ وأحضر شايا مثلجا وقال لي جرب هذا. كنت مندهشا بقدر ما كنت فرحا بهذه الاكتشافات الجديدة (شوكولا وشاي مثلج) وفي بيت جبرا ابراهيم جبرا الذي أحضر لي قصائدي المنشورة في الخارج! أي نوع من الرجال هذا الشخص؟
لم أكن أتكلم كثيرا وقد شعر جبرا بقلقي فقام وأحضر الصحف ومجلة كبيرة هي مجلة اليوم السابع التي كانت تصدر في باريس وقد نشرت لي قصيدة طويلة أخذت صفحة كاملة من المجلة. كنت أتمنى أن أسمع من جبرا رأيه فيما اكتب وكدت أهم بسؤاله ولكني تراجعت في اللحظة الاخيرة. لقد كنت في الخامسة والعشرين.
خرجت من بيته وأنا أكاد أطير من الفرح، ليس بسبب القصائد المنشورة في الخارج فقط ولكن لاهتمام جبرا الملحوظ بي هذا الرجل الذي كنت أنظر إليه بوصفه شخصا يعرف كل شيء عن الأدب والفن والترجمة اضافة إلى إبداعه في هذه المجالات كلها. قبل أن اخرج أعطاني رقم هاتفه وقال إنه يمكنني أن اتصل في أي وقت اشاء. عندما كان يقال لي أن جبرا في الخارج كنت انتظر بفارغ الصبر عودته محملا بعدد من الصحف والمجلات الجديدة التي كنا محرومين منها في العراق، إضافة الى الشوكولا والشاي المثلج طبعا.
البعض من المثقفين العراقيين كان يعتقد أن جبرا كان مستفيدا من نظام الدكتاتور صدام حسين نظرا للمكانة التي يتمتع بها والامتيازات المادية التي يحصل عليها، ولكنني شخصيا أعتقد أن نظام الدكتاتور كان هو المستفيد من وجود جبرا في العراق، فلا أحد يستطيع أن ينكر اسهامات جبرا الكثيرة في مختلف المجالات الأدبية والفنية. لقد كان وجود جبرا بيننا محرضا بحد ذاته، وعندما يقول شخص مثله وبفم مملوء لشخص هارب من جحيم القتلة (كيف شمعًت الخيط)؟ الحمد لله أنك استطعت الهرب، يعني ذلك أن جبرا كان معنا وليس ضدنا ابدا.

استعادة جبرا ابراهيم جبرا

علي حسن الفواز

هل يمكن ان نستعيد جبرا ابراهيم جبرا بعد خمسة عشر عاما على وفاته؟ نستعيده في الحضور مثلما نستعيده في الذاكرة، هذه الذاكرة القاسية والظالمة احيانا، اذ يبدو جبرا الذي توفي منذ اكثر من اربع وعشرين سنة عند طقوسها المشغولة بحروب صغيرة وكبيرة،
ومتاهات اخذت المدن وساكنيها الى نوع من (النهب الكوني) و(شراهة القوة) و(فزع القبح) تلك التي عمل ضدها جبر ابراهيم جبرا طوال اكثر من نصف قرن، اذ اسهم في صياغة الكثير اشكال الثقافة الوقائية، والمعادلات الجمالية في الذائقة العربية، جعلها الاقرب الى الدفاع عن الانسان مثلما هي الاقرب الى روح الحداثة واللذة والاناقة، توغل من اجلها في مجاهيل المغامرة، اقترب من المناطق الساخنة في المعرفة والتاريخ، لم يتحسس من الامكنة، فكان اكثر حميمية في مكوثه فيها، متماهيا مع قدر ثقافي جعله اكثر توهجا في عراقيته وعربيته وكونيته، عاش مع جواد سليم مخاضات(نصب الحرية) وعاش مع بدر شاكر السياب احلامه وفوضاه وايام موته التراجيدي. ولد جبرا ابراهيم جبرا في مدينة بيت لحم ١٩٢٠، عاش طفولته ودراسته الاولى في القدس، انتقل بعدها الى جامعة كامبردج للدراسة الاكاديمية، وفي عام النكسة ١٩٤٨ انتقل الى العراق ليكمل دورة حياته وموته فيها. في بغداد انكشفت عوالم جبرا الابداعية والفكرية، اذ اصدر هناك روايته الاولى(صراخ في ليل طويل١٩٥٥)ومجموعته الشعرية الاولى(تموز في المدينة ١٩٥٩) ثم اصدر العديد من الكتب في مجالات النقد والرواية والشعر والفن التشكيلي ومنها الروايات (صيادون في شارع ضيق ١٩٦٠، السفينة ١٩٧٠،البحث عن وليد مسعود ١٩٧٨، والرواية المشتركة مع عبد الرحمن منيف- عالم بلا خرائط- ١٩٨٢،والغرف الاخرى ١٩٨٦، يوميات سراب عفان، وسيرته الذاتية__ البئر الاولى ١٩٨٩ وشارع الاميرات ١٩٩٤) وفي القصة القصيرة اصدر(عرق وقصص اخرى ١٩٥٦ والتي كتب الشاعر توفيق صايغ مقدمتها) وفي الشعر اصدر(تموز في المدينة ١٩٥٩، المدار المغلق ١٩٦٤، لوعة الشمس ١٩٧٩، وبعد وفاته نشرت مجموعته الشعرية الاخيرة متواليات شعرية ١٩٩٦) وقدّم جبرا للمكتبة روائع الادب الانساني(مسرحيات هاملت، الملك لير، ماكبث، عطيل، العاصفة، السونيتات الشكسبيرية، برج بابل لاندريه مالرو، الامير السعيد لاوسكار وايلد، في انتظار غودو لصاموئيل بيكت، الصخب والعنف لوليم فوكنر، ما قبل الفلسفة لهنري فرانكفورت، ترجمته الرائدة لفصل من كتاب جيمس فريزر__الغصن الذهبي) فضلا عن كتابته للعديد من المؤلفات في مجالات الفنون منها كتابه المهم(جذور الفن العراقي بالانكليزية) انشغل جبرا بعوالم الثقافة دون ملل، كتب العديد من السيناريوهات لافلام السينما التسجيلية التي كانت تنتجها وزراة الثقافة، وترأس تحرير العديد من المجلات منها(العاملون في النفط)و(مجلة فنون عربية) كما ترأس رابطة نقاد الفن لسنوات طويلة، وترأس العديد من اللجان التحكيمية في مجال الفنون التشكيلية والسينمائية ومنها لجنة التحكيم للافلام العراقية منذ ١٩٧٦ ولحين وفاته، حصل على منحة(جائزة اوروبا ١٩٨٢) استعادة جبرا هي استعادة لكل هذا التاريخ المتحشد بروح(العدائين) الذين يركضون نحو قمة التعالي الثقافي، استعادة لروح المكان العراقي الواقف عند الحافة، استعادة للقوة النبيلة التي كانت تحمي العمران الثقافي، والروح السرية للثقافة. وربما كانت هي مواجهة عميقة لهيمنة الغياب، تلك التي اضحت تمارس بشاعة تلصصها ومحوها على رائحة هذه الروح. ومن هنا نجد ان فكرة الاستعادة تكمن في اعادة انتاج السياق الثقافي الذي كان جبرا ابراهيم جبرا جزءا من شهوده، وجزءا

من شهوته الدافقة التي قال فيها انسي الحاج(كان عنده فيض دافق) فهل ضاع جبرا الشاهد الحي على الحياة وسط هذا الموت الذي اجتاح الذاكره مثلما اجتاح الامكنة؟ وهل ستكون استذكاراته هي اعادة مضادة للروح السردية الفائرة في امكنته وحيواته الضاجة بالتشهي؟ هذه الاسئلة تدفعنا نحو اركيولوجيا الجسد العراقي، جسد النص وجسد المكان المكشوفان على الفراغ، ربما لاحساس يشوبه الكثير من الخوف والرعب بان جبرا قد ضاع اثره وسط فوضى الكراهية، وزحمة الحروب الاحتلالية والطبقية والطائفية، وغرائبية الحداثات العجولة والفاقدة لطعمها وشغبها... صوته الشكسبيري لم يعد صانعا للحلم، حلم ليلة صيف او شتاء لا فرق. ذهب الكثيرون عن اثره، غاب اصدقاؤه البعيدون، موتى او منفيين، عوالمهم اصبحت فعلا بلا خرائط، او ربما لم تعد تحتمل بطلا تراجيديا بمواصفات وليد مسعود، او هوسا شهوانيا كما كانت تضج به عوالم السفينة او الشوارع الضيقة.. استعادة جبرا ثقافيا وانسانيا هي استعادة لوعي ثقافي عميق، ولأثر مهم من فعلنا الثقافي، ظلت روائحة عالقة على ثيابنا واوراقنا، ولعل غيابه ترك الباب مفتوحا للكثير من اللصوص ومشعلي الحرائق لكي يتلصصوا على عري كلامنا واحلامنا وجنوننا، يشعلون في حقول ارواحنا المزيد من القصب والمزيد من الضجر.. استعادة جبرا الروائي والشاعر والترجمي والتشكيلي والموسيقي والنقدي هو استعادة لجماليات نرجو ان لاتكون غائرة وبعيدة، اذ ان جبرا الجامع للنص والسعادات كان يمنحنا دائما الاحساس بضرورة ان تكون الثقافة جزءا من الحلول دائما.

جبرا إبراهيم جبرا وغويا ومجلة العاملون في النفط

سلوى الجراح

قرأت قبل ايام في ملحق المدى ذاكرة عراقية مقالة للكاتب الراحل جبرا إبراهيم جبرا، يروي فيها قصة تعارفه الطريفة مع كاتبة الروايات البوليسية الشهيرة أغاثا كريستي حيث تعرف على زوجها عالم الآثار ماكس مالون الذي جاء عام ١٩٤٨
إلى بغداد للتنقيب في آثار نمرود عاصمة الدولة الآشورية في عصور ازدهارها، وقدمت هي له بصفتها «المسز مالون« ثم اكتشف بعد معرفة طالت، أن المسز مالون هذه ما هي إلا أغاثا كريستي الكاتبة المعروفة، التي ظلت مسرحية «مصيدة الفئران» المأخوذة عن رواية لها بنفس الاسم تعرض على مسارح لندن لتسعة وخمسين عاماً، بل وما زالت تعرض حتى يومنا هذا لأيام محدودة في مسارح لندن الصغيرة.;أسعدتني المقالة وعدت بالذاكرة إلى سنيّ الشباب الأولى وتعرفي عليه من خلال رواياته الاولى البئر الأولى \» ثم \» صراخ في ليل طويل\» والرواية التي استهوتني كثيراً «صيادون في شارع ضيق « التي كتبها أصلاً باللغة الانكليزية عن شاب فلسطيني يأتي بغداد ليعمل في التدريس ويصادق مثقفيها الشبان ويدور معهم في شارعها الضيق شارع الرشيد. ; واسترجعت أحاديثي معه.في ذلك الزمن البعيد. كنت قد تخرجت للتو من جامعة الحكمة للآباء اليسوعيين في بغداد، التي كان مبناها في منطقة الزعفرانية، لكنها أُممت عام ١٩٦٩وأجبر أساتذتها من الاباء اليسوعيين ممن درّسوا فيها أو في كلية بغداد الشهيرة على مغادرة العراق بتهمة أنهم كانوا جواسيس رغم أنهم خرّجوا أجيالاً من خيرة المتعلمين. ; كنت شابة تحمل شهادة البكالوريوس في الادب الانكليزي، انضممت للعمل في شركة نفط العراق مترجمة للقسم التجاري وكنت أمضي اليوم أترجم رسائل لا تخرج عن، كتابنا وكتابكم ; وبدأت أشتاق لما تعلمت من شعر شكسبير وشوسر وادب ديكنز وهاردي. كان جبرا ابراهيم جبرا رئيس تحرير مجلة \»العاملون في النفط\»، مجلة شهرية تصدرها شركة نفط العراق تتحدث عن إنجازات الشركة ونشاطاتها في تطوير صناعة النفط في العراق وتنقل أخبار العاملين في مدن النفط الرئيسية، البصرة وكركوك وعين زاله، قرب الموصل، ومحطات ضخ النفط وكانت المجلة التي تصدر بغلاف لامع يحمل لوحة لأحد الفنانين العراقيين، جواد سليم، راكان دبدوب، رافع الناصري وغيرهم من أعلام التشكيليين العراقيين أو بعض الرسامين الشباب الواعدين، تضم بين صفحاتها بعض الموضوعات الأدبية والثقافية وكان جبرا ابراهيم جبرا يشجع الكتاب والرسامين الشباب على الكتابة في مجلته ويدفع لهم أجوراً مجزية فقد كان مؤمناً بالشباب وبضرورة تداول المعرفة والابداع بين الاجيال. بل إن الكثير من الشعراء والكتاب العرب يعترفون له بالفضل لأنه ترجم أجزاءً من كتاب «الغصن الذهبي « للسير جيمس جورج فريزير، الكتاب الذي قدم مفهوماً جديداً للميثولوجيا والدين وأثّر في الادب والفلسفة الغربية، وجعل رموز المثلوجيا الاغرقية أبطالاً في قصائد الشعر الحديث.وكان جبرا ابراهيم جبرا صديقاً لأبي الذي عمل هو الآخر لسنين طويلة في شركة نفط العراق كمهندس مواصلات. ; وحين التحقت أنا بالعمل في الشركة قال لي يوماً: \»لم لا تكتبين يا سلوى لمجلة «العاملون في النفط«؟ أكتب؟ أنا أكتب؟ أنا التي لم تكتب سوى المقالات الجامعية في تحليل رواية أو عمل أدبي كجزء من الدراسة،لم لا؟ حين جلست على الكرسي القريب من مكتبه وضع أمامي مقالاً باللغة الأنكليزية عن الرسام الاسباني الشهير فرانسيسكو خوزيه دي غويا (١٧٤٦-١٨٢٨ اقول لكم الحق لم أكن قد سمعت به. شعرت بخجل شديد من جهلي ولم يسعفني كل ما تعلمت من شعر وأدب ومسرحيات ولا حكايات أبطال الميثولوجيا الأغريقية. أحسّ هو بما يدور في عقلي همس باسماً: «غويا هو آخر من هم في قائمة الرسامين العظام والأول على قائمة المعاصرين الجدد، هو من الرومانسيين مثل بايرون وشيللي. احسست بشيء من الاطمئنان، هو إذاً رومانسي يعبر عن خوالج النفس ويقول كل ما يدور في خلده ; وانا أحب الشعراء والكتاب الرومانسيين و أجد دائماً في الشعر العربي المعاصر نفس أبي الرومانسية الأنكليزية وليام وردزورث تصفحت الأوراق أمامي بصمت لوحات بالابيض والأسود تحمل عنوان \»كابريشوس عاد يشرح لي: هذه لوحات مرسومة بالفحم يصور فيها غويا فظاعة الحرب، غزو نابليون بونابارت لاسبانيا عام ١٨٠٨ وقتل الأبرياء وإحراق المزارع. تأملت الصور ; مشاهد تصور الم الانسان تحت سطوة الظالم. بدأ عقلي يعمل كيف أترجم كل هذا الفن والتحليل إلى العربية؟ شرح لي أن المطلوب ليس ترجمة حر فية بل نقل للحقائق.

جبرا ابراهيم جبرا..التغريبة الأخيرة لحامل الزيتون

أحمد فاضل

لم يتعرض كاتب او شاعر للاهمال والنسيان كما تعرض له اديبنا وشاعرنا جبرا ابراهيم جبرا هذا الانسان الرائع بكل معنى الكلمة ، صائغ القوالب الادبية التي توزعت بين قالب روائي وشعري وترجمة وفن تشكيلي ونقد . جاء يحمل صرة سفره الطويل من بيت لحم بفلسطين تاركا" وراءه ضيعة صغيرة تظللها اشجار الزيتون هي كل ماكان يملكه جده لابيه.
ولم يكن بيت المقدس ليبعد عن تلك الضيعة سوى فراسخ معدودة لكنه اصبح الان في نهاية العالم بعد ان حط رحاله في بغداد او كما كان يصف تلك المسافة ..ولد في عام ١٩١٩ من أب سرياني ارثو ذكسي الاصل في بيت لحم بالقدس وما ان تعرف على كنائس المدينة التي تلتقي مع مساجدها بحائط واحد حتى شعر بأقدام اليهود وهي تجوس تلك الاماكن فحمل حقيبته مسافرا\" يتبعه الالاف من ابناء فلسطين حتى كانت بغداد في اربعينيات القرن الماضي ملاذا\" له ومنفى ..كان اديبنا الشاب قد تسلح بالعلم فلاغرابة ان تتلقفه جامعات العراق ليدرس فيها الادب الانكليزي ، وهناك تعرف على النخبة المثقفة فعقد علاقات متينة مع اهم الوجوه الادبية التي كان لها حضور متميز ليس على المستوى المحلي فقط بل على المستوى العربي وخاصة الشاعر بدر شاكر السياب (١٩٢٦-١٩٦٤) وعبد الوهاب البياتي (١٩٢٦-١٩٩٩) فكانت له معهم جولات ادبية اتسمت مرة بوشيجة نقدية لديوان السياب (شناشيل بنت الجلبي) او بمماحكة هي اقرب منها للكوميديا السوداء لقصائد البياتي الذائعة الصيت ، فكانت تلك الجولات تعرف طريقها الى الصحف والمجلات الادبية التي صدرت في بغداد وبقية المدن العربية خاصة مصر التي كانت مرتعا " خصبا " لادب الرواية والنقد قبل ان يعرف الشعر الحديث مكانه اليها ..في هذا الجو الادبي المشحون بغرائبية الموقف استطاع جبرا ان يقدم للقارئ العربي تعريفا " بأهم الكتّاب الغربيين وعرفّهم على المدارس والمذاهب الادبية الحديثة ولعل ترجماته لشكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) من اهم تلك المعاريف وكذلك ترجماته لعيون الادب الغربي مثل نقله لرواية (الصخب والعنف) التي نال عنها الكاتب الامريكي وليم فوكنر (١٨٩٧-١٩٦٢) جائزة نوبل للاداب ، ولم يقف كاتبنا عند حدود الترجمة بل اشتغل في الشعر وفي الرواية ومن اهم اعماله :- السفينة / البحث عن وليد مسعود / عالم بلا خرائط بالاشتراك مع الكاتب المبدع الراحل عبد الرحمن منيف (١٩٣٣-٢٠٠٤) وكذلك كانت له صولات وجولات معروفة في مجال النقد ويعتبر جبرا ابراهيم جبرا من اكثر النقاد حضورا" ومتابعة في الساحة الثقافية العربية .ولم يكن مقتصرا" على الادب فقط بل كتب عن السينما والفنون التشكيلية علما" انه مارس الرسم كهواية وله لوحات جميلة توزعت على اصدقائه ومعارفه ولم يسع احد منهم لجمعها وضمها في معرض موحد وهذا مما ساعد على نسيان جانب مهم من جوانب ابداعاته .اما كتب الدراسات فله ستة منها :- ترويض النمرة التي تعتبر من اهم كتب الدراسات التي نشرت وحازت الاعجاب والرمز والاسطورة وما قبل الفلسفة هذا من جانب اما رواياته فله اكثر من ٩ روايات ابرزها :- البحث عن وليد مسعود التي صدرت عام ١٩٧٨ / صراع في ليل طويل عام ١٩٥٥ / ا لسفينة عام ١٩٧٠ /
اما مجاله الشعري فقد اتسع لثلاثة دواوين هي :- تموز في المدينة / المدار المغلق / لوعة الشمس ، وهو في كل ماكتبه قدم صورة قوية للايحاء والتعبير عن عمق واوجه مأساة شعبه في فلسطين وتلك الغربة التي كان يعيشها مرغما" برغم كل هذا الفيض من الحب الذي غمره بها اهل بغداد .وبعد كل هذا الذي قدمه اديبنا من جهد خلاق طويت صفحته الناصعة البياض بوفاته عام ١٩٩٤ وكانت صورته الاخيرة التي ظلت عالقة في ذهني هي في لقائه باحد مصارف بغداد متهيئا" لتسلم راتبه التقاعدي فمددت اليه يدي مصافحا" ولم اكن اعلم ان ذلك اللقاء سيكون اخر عهدي به وكما جاء حاملا" حقيبة سفره الى منافي الغربة هاهو يتوشح بساطه السحري ليسيح في عالم اللاوعي ، عالم اردنا فيه ان نبحث عن تغريبته الاخيرة فلم نعثر الا على شجرة زيتون كان قد زرعها قرب بيته ولاندري هل سألت عنه ؟ تلك هي المسألة !!

عراقيون
من زمن التوهج

العدد (4502)
السنة السابعة
الخميس - عشرة (5) أيلول 2019

العدد (4502)
السنة السابعة
الخميس (5) عشرة - أيلول 2019

لماذا نسينا جبرا إبراهيم جبرا

علي حسين

يحدثا جبرا عن علاقته بالعراق بشكل عام وبغداد بشك خاص في معظم كتبه ، وسيخصص كتابا بعنوان « شارع الأميرات» يروي فيه حكايته مع هذه المدينة الاثيرة على قلبه : « اخترت عام ١٩٥٦ ان أشتري أرضاً لكي أبنـي فيها بيتا على قدر حاجتي العائلية. لكني وجدت في ما بعد ان بيوتا متباعدة اخذت تنهض على جانبيه بسرعة وأشجار النخيل المتساوقة في خطين طويلين قد نمت واكتملت على حافتي الرصيف العريضتين.

لقد رسم المعمار قحطان عوني أول تخطيط لداري.. ثم قدم لي الصديق رفعت الجادرجي تخطيطاً آخر لكني آثرت في النهاية ان استفيد من التخطيطين ليكون منزلا لي ولزوجتي لميعة ولطفليّ الصغيرين على قدر طاقتي المادية» .علاقة خاصة وحميمية ربطت بين جبرا وبين الشارع الذي بني به البيت:» قامت علاقة حب عميق بيني وبين شارع الأميرات في حي المنصور مازلت أتمتع بنبضها وإيحاءاتها.كان من السهل ان أتعرف بهذا الشارع المتميز بين شوارع بغداد كلها، فقد كان الشارع الموازي عن قرب للشارع الذي اخترت عام ١٩٥٦ ان أشتري فيه أرضا ضمن مشروع سكني وبأقساط ما انتهيت من دفعها إلا بعد واحد وعشرين عاما لكي أبني فيها بيتا على قدر حاجتي العائلية يومئذ، وكان الاستاذ علي مال الله رئيس شركة أراضي المنصور صديقا حميما وهو الذي نصحني بابتياع تلك الأرض ولم تكن يوما إلا رسماً صغيراً على خارطة كبيرة اذ كانت في الأصل جزءاً من بستان فسيح تحول إلى منطقة سكنية عصرية محكمة التخطيط.لأسباب مادية صرفة لم استطع اكمال بناء دارنا إلا بعد مرور ست سنوات، ورغم انني كنت اول من اشترى أرضاً في هذا الشارع ايام كان مرصوفا رصفا بدائيا وتنتشر فيه الصرائف وتسرح فيه الأبقار والأغنام، فإنني وجدت ان بيوتا متباعدة أخذت تنهض على جانبيه بسرعة، وما ان تحولنا الى دارنا أخيراً في أيلول ١٩٦٥، إلا وكان للشارع شخصيته المتميزة ولاسيما إنني يومئذ آثرت ان اجعل رصيف الدار مزروعة بالثيل و اشجار الصنوبر، وإذا بالجيران يقتلعون الاسمنت ويزرعون الأرصفة بالثيل والاوراد، وكانت تلك بداية النهج الذي اتبعه بعد ذلك كل من بنى في حي المنصور في جعل الرصيف جزءا متصلا بالحديقة الأمامية.» . ان ذاكرة المكان عند جبرا منذ صباه « وهو يحكي عن القدس وبيت لحم» ثم دراسته في انجلترا تشكل نواة اهتماماته المعمارية ..وعلاقاته بالمكان ابتداء من بيت لميعة العسكري ..حتى منزله الذي صممه قحطان عوني .. وغرفته في شارع الرشيد وبيت اغاثا كريستي على دجله وغرفتها الطينية عند آثار نمرود ومقاهي بغداد: البرازيلية والسويسري والبرلمان ومكتبات مكنزي وكورونيت حتى تشكيلات شارع الأميرات وأرصفته وحدائقه ومنعطفاته .» أخذت لميعة تدعونا بين الحين والحين الى منزلها لتناول الشاي .... والمنزل جديد لم يمر على بنائه عام واحد وأعجبت بتصميمه الحديث على غير ما اعتاده البغداديون حتى تلك الآونة في بيوتهم التقليدية، فقد وضع تصميمه المهندس حازم نامق الذي تخرج من جامعة ويلز وهو من أصحاب مدرسة معمارية صغيرة في العراق عرفت بتخطيط مبان للدولة تتميز بالجرأة في الرؤية والتصميم» .. ومنذ تلك اللحظة سيعتني جبرا برفقة رهط من المعماريين والفنانين التشكيليين ليشكلوا نواة فكر وحداثة وجدل جديد في العراق . لقد كان صديقا لبلند الحيدري ويلتقي حسين مردان في تمرداته ويرافق حافظ الدروبي في مرسمه ويشكل مع جواد سليم جماعة بغداد للفن الحديث بحيث تتاح لجواد افكار ولغة مختلفة في عرض خطاب الحداثة ..وهو البيان الذي ألقاه جواد في افتتاح المعرض، وكان كما اشار الفنان شاكر حسن آل سعيد من وضع جبرا ذاته كما يتسع له الوقت لرفقة عدنان رؤوف وحلمي سمارة وخالد الرحال ودزدموند ستيوارت(الذي سيصبح في ما بعد اديبا لامعا وباحثا بريطانيا بشأن حضارات وادي الرافدين) ونجيب المانع ويوسف عبد المسيح ثروت وعبد الملك نوري وزهدي جار الله ونزار سليم وغيرهم كثيرون، وهم يمثلون نخبة من شباب بغداد الخمسينات الذين يأسرهم هاجس التجديد وتوجهات الحداثة وتيارات الوجودية والفكر.×××كثيرا ما يفاجأ جبرا بسؤال زوار بيته وهم ينظرون إلى المكتبة التي انتشرت على الحيطان لتأخذ حيزا كبيرا من البيت: هل قرأت كل هذه الكتب؟،

وستكون إجابته التي تعود ان يقولها وهو يبتسم ، لقد اطلعت عليها كلها .. لم يكن الكتاب بالنسبة لجبرا سوى ضرب من العشق وهو يحفظ مقولة فرنسيس بيكون الشهيرة» بعض الكتب وجد لكيما يذاق، وبعضها لكيما يبتلع، والبعض القليل لكيما يمضغ ويهضم» .

ذات يوم ساتجرأ واطلب من الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا ان يسمح لي باجراء حوار معه .. والغريب انه وافق .. وهنا بدأت المشكلة .

ما هي الموضوعات التي سأتحدث بها ، فانا امام روائي وناقد ومترجم وشاعر ومسرحي وتشكيلي ، قلت مع نفسي لأبدأ بسؤال تقليدي ربما استطيع من خلاله ان أمسك بناصية الحوار فسألت ببساطة .

• لماذا تكتب؟

– اجاب مبتسما منذ سنتين لم اكتب انشغلت بالترجمة

• على ذكر الترجمة.. لماذا اخترت الصخب والعنف بالذات لتقدمها للقارئ العربي ؟

كان هذا السؤال أشبه بالمشكلة التي يلقيها الواحد منا ثم ينتظر كيف تحل . ساد الصمت لحظات ..بعدها تكلم جبرا وكان علي ان ألاحقه ، فهو حين يتكلم .. يتدفق ، فتراه مثل ممثلي المسرح يندمج في الحديث ، يتقمص ، يتكلم ويتوقف ، يلون صوته ، وينسق الكلام مع حركة يديه ، انه يستأثر بك فتنسى موضوع الحوار ، وتكتفي بمتعة النظر اليه وسماعه وهو يتحدث .. الذين يعرفونه جيداً يقولون انها خطته العكسية في جعل الحوار يتحول الى مبارزة فكرية .. انه لايمنحك حديثاً ، وانما يقدم محاضرة في شتى أنواع المعارف . وكانت هذه هي المشكلة التي حاولت علاجها وانا أكتب ما يقوله .

لحظات ثم تغير الموضوع !

انني أفكر في العودة الى سؤال جبرا ابراهيم جبرا عن الكتابه فقلت :

• عندما تشرع في كتابة رواية ..هل تخطط لها مقدما ، محددا أبعاد شخصياتها ، أم انك من نوع تشارلز ديكنز مثلاً الذي كان يترك نفسه يتشبث يما يكتبه حتى وان كان عفويا؟

يبتسم جبرا ثم يجيب : من هو الروائي؟ ، يقول هيغل إن مضمون العمل الفني هو الفنان نفسه ، انه يعطي الكلمة لعالمه الداخلي من أجل ان يوقظ على هذا النحو لدى قرائه المشاعر والحالات النفسية التي يشعر بها ، وحتى لو تناول العمل الادبي (ثيمات) موضوعية خارجية على حياته ، فان الكاتب الكبير سيبتعد عنها بسرعة كبيرة وسينتهي بأن يرسم صورة لنفسه

وسأسأل ثانية : أي الروائيين أقرب الى نفسك

يضحك جبرا حينها لحظات قصيرة ثم يقول : عندما فكرت في كتابة « السفينة « كنت انذاك اترجم الصخب والعنف لفوكنر ، كانت الرواية العربية في تلك الفترة منشغلة بالبحث عن أساليب جديدة خصوصا ان الواقعية كانت تلفظ انفاسها ، وكان لابد لي ان أهتم بهذا الجانب فوجدت في الصخب والعنف منقذاً لي من حيرتي انها رواية الاصوات المتعددة التي تمتلئ بالافكار المتداخلة والمتحررة من كل عبودية وخضوع لأي منطق وتجريبية أيضا من خلال علاقتها بالزمن .

أقول لجبرا ابراهيم جبرا : لو تفحصنا تاريخ الادب والفن ، لوجدنا نوعين من الاعمال والمؤلفين ، ففي بعضها مثلا تكون حياة الكاتب اهم من اعماله ، ان حياة جان جاك روسو واعترافاته يمكن ان تكون مثالا لذلك، حيث ان حياته نفسها اصبحت أهم وأبقى من اعماله ، فيما نجد أعمالا اخرى يختفي فيها المؤلف بينما تبقى أعماله ..فوكنر مثلا نحن لانعرف كيف كان يعيش ، لقد اختفى الفنان داخل عمله ..من هنا أريد ان اسألك أنت مغرم بفوكنر لكننا كقراء نجد شخصية جبرا في معظم اعماله.

لحظات صمت ثم يرد جبرا في الواقع انا كنت حريصا في الدرجة الاولى على الاستفادة من تقنيات فوكنر الفنية في كتابة الرواية ، اما طريقته في الحياة فأنا أبعد ما اكون عنها ، فوكنر انعزالي ، وانا احب التجمعات سواء كانت اجتماعية او ثقافية . انا اجد نفسي جزءا من حراك ثقافي وفني متواصل منذ الاربعينيات ، وفوكنر كان يرى ان مهمته الاساسية البحث عن اسلوب جديد للأدب .

قلت : هل معرفة الحياة الشخصية للكاتب او الفنان تساعد على فهم اعمال – انا شخصيا عندما اقرأ للاخرين فإنني احاول ان اركز دائما على العمل الفني ذاته ، ولم يحدث في قراءاتي جميعها ان قرأت حياة كاتب قبل ان اقرأ اعماله .

كان فوكنر ينظر بغرابة لكل من يسأله عن حياته الشخصية وذات يوم قال ل(شرودر):– «وانا أسير في شوارع مسيسبي اشعر كان الجميع يراقبني ، ويريد ان يفهم كيف يمكن لرجل يجلس في الظل ويكسب ٣٠ الف دولار مرة واحدة – كان هذا المبلغ هو قيمة جائزة نوبل انذاك – لمجرد انه كتب بعض كلمات على ورق ، في مسيسبي الرجال يفهمون انه لكي يحصلون على دولار عليهم ان يخرجوا اولا في الشمس ويعرقون وهذا ما يحيرهم في امري « .

ترتدي بغداد في نظر جبرا ابراهيم جبرا ثوب المعرفة والسعادة ، بل انها صورة البحث عن التغيير :» عندما جئت الى بغداد لم لكن اعرف ما الذي ساراه . كنت سمعت عن شهرة شعرائها ، الجواهري كانت شهرته عامة ، اما بلند والسياب فكانوا في اوائل عهدهم ، جئت الى بغداد وانا مليء بالتحفز ، لانني احسستت ان التغيير يجب ان يشمل كل شيء ، وشعرت ايضا ان التغيير يجب ان يبدأ بالكلمة وبالصورة ، ولهذا كنت التقي بالشباب ومنهم بلند الحيدري واخرون ، ثم جواد سليم ثم فائق حسن ، ثم نازك « ، هذه الصورة بما ينطوي عليها اليوم من نسيان وفقدان للذاكرة الثقافية ، يستدعي منا استعادة جبرا والبياتي والسياب وجواد سليم وعلي الوردي وغائب طعمة فرمان وعلي الوردي وفائق حسن وجميل بشير لنشيد جسرا للتفاهم بين الماضي والحاضر .

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني: خالد خضير

طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com

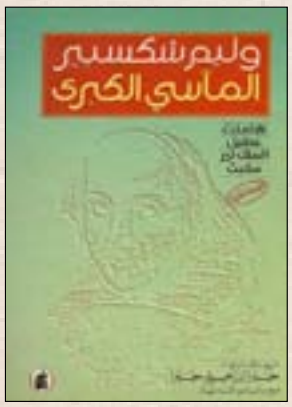

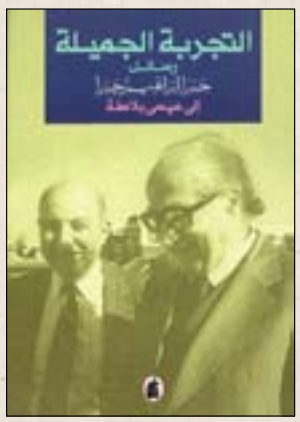

جبرا وقطرتا الحلاوة

لطفية الدليمي

كان ذلك النص "الجبرائي" فياضا ببساطة جليّة؛ لكنها ببساطة الحفريات العميقة التي تقطّر الخبرات المعتّقة في مفردات شفافة.

فعل ما فعل ابتغاء لقطرتين فحسب من الحلاوة في بحر المرارات

لم أزل أذكر غمامة الحزن التي داهمتني وأنا أقرأ مقالة الروائي والمترجم الراحل جبرا إبراهيم جبرا التي كتبها في مجلة "آفاق عربية" قبل أيام قليلة من رحيله.

كانت المقالة بعنوان "قطرتان من الحلاوة"، وقد احتلّت الصفحة الكاملة ما قبل الأخيرة المخصصة لكبار الكتاب، قرأت المقالة مرارا واستشعرت طعم الأسى الذي كان يفضح انطفاء وهج الحياة في روح جبرا إبراهيم جبرا، الذي عرفته كاتبا صديقا رائعا؛ غير أنّ ذلك الأسى كان مُحمّلا بشحنة فلسفية عميقة جعلت ذلك النصّ وكأنه خبرة جوهرية من الخبرات المكثفة الأثيرة في الحياة.

كان ذلك النص "الجبرائي" فياضا ببساطة جليّة؛ لكنها ببساطة الحفريات العميقة التي تقطّر الخبرات المعتّقة في مفردات شفافة.

يقول جبرا في نصّه -وبقدر ما تسعفني به ذاكرتي- أنّه مضى في حياته لفعل أشياء كثيرة مدفوعا بدوافع مختلفة في ظاهرها؛ فقد أبحر منذ بواكير شبابه أيام الحرب العالمية الثانية للدراسة في كامبريدج، ثم ركب المحيط مرة ثانية لإكمال دراسته في هارفرد، ولطالما جدّف مع زملائه الكامبريدجيين في نهر الكام الذي شهد سباقات التجديف الشهيرة، وعرف أناسا كثيرين، ومضى يمشي لمسافات طويلة في متاهات الغابات، وشرب أنواعا لا تحصى من النبيذ، وكتب كتبا كثيرة، ودبّج مقالات عديدة، إلخ.

ثمّ ينتهي جبرا بتقرير حقيقة تنطوي على خلاصة تجربة ثرية عندما يعترف بأنّه فعل ما فعل ابتغاء لقطرتين فحسب من الحلاوة في بحر المرارات التي يعيشها كل امرئ منا.

غريبة هذه الحقيقة جدا!! وبقدر ما هي غريبة للوهلة الأولى فإنّها تشعّ بحقيقة ساطعة نعيشها ولا ندركها في الغالب، ولعلها إجابة معقولة إلى حدّ ما لذلك السؤال الفلسفي الأنطولوجي الذي نطرحه -بين أسئلة كثيرة- عن معنى الحياة وجدواها وغائيتها، وقد يُفني الكثيرون منّا سنوات طويلة -بل وربما حيوات كاملة- وهم يبحثون عن إجابات لمثل تلك الأسئلة يحدوهم أمل عريض في بلوغ إجابات حاسمة وكأن الحياة البشرية موضوع تجربة مختبرية يمكن التوثّق من أسئلتنا في شأنها بإجابات قاطعة، وقد ينوّع البعض في قراءاته وبحوثه مستعينا

برؤى فلاسفة وفيزيائيين -بل وحتى علماء رياضيات- وغالبا ما ينتهي به الأمر إلى ما يشبه المتاهة الفكرية والوجودية.

أرى أنّ عبارة جبرا تنطوي على قيمة أثيرة من جانبين: الأوّل وجوديّ يختصّ بتأكيد قيمة التجربة الفردية والرؤية الشخصية في مثل هذه الأسئلة الوجودية وعدم جدوى الإجابات الجمعية حتى في الحالات التي تكون للتجربة الفردية قدرة على ملامسة تجارب الآخرين والتجاوب معها.

أما الجانب الآخر فهو فلسفي خالص يؤكّد أهمية القيمة الميتافيزيقية لمعظم الموضوعات التي نادرا ما نعيرها اهتماما مناسبا ونحن في زحمة العيش ومعضلاته التي لا تنتهي، والقيمة الميتافيزيقية في عبارة جبرا تتصادى مع عبارة "أمل من غير تفاؤل" وهي عنوان أحد أحدث كتب الناقد الثقافي البريطاني تيري إيغلتون.

يمتلك الأمل سطوة في حياة المرء لأنه يختصّ بتطلّعات ميتافيزيقية الطابع، مثالها قطرتا الحلاوة اللتان سعى وراءهما جبرا؛ في حين أنّ التفاؤل ينشأ من تحقق أهداف مادية الطابع ومشهودة على أرض الواقع، وهي في العادة أهداف قصيرة النفَس مصيرُها الذبول المحتوم ولو بعد حين.